الردة وموقف أبي بكر منها

الأستاذة نجدة خماش
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

تستخدم المصادر العربية كلمة الردة للدلالة على انتقاضه القبائل العربية اثر وفاة الرسول الكريم ، ويعتبر العديد من المؤرخين هذه الردة ارتدادا او رجوعا عن الاسلام ، ولكننا قبل ان نتهم هذه القبائل في اليمن وحضرموت ومهره وعمان واليمامة وبلاد اسد بالرجوع عن الاسلام ، يجب ان نستبين مدى تغلغل الاسلام بين هذه القبائل ، الاسلام بمعنى الايمان التام والكامل كدين ونظام للحياة والجماعة من جهة ، ومدى تقبل القبائل العربية لمفهوم الدولة الاسلامية التي ظهرت بظهور الاسلام وما يتضمنه مفهوم الدولة من انصياع للسلطة المركزية من جهة اخرى .

من المتفق عليه ان فتح مكة وما اعقبه من استسلام هوازن وثقيف اثبت للعرب ان المسلمين قوة سياسية وحربية الى جانب العقيدة التي تنزلت على النبي العربي ، ولذلك بدات القبائل ترسل وفودها منذ نهاية العام الثامن وطوال العام التاسع كما ان مقدمات سورة التوبة من اولها الى نهاية الاية الثامنة والعشرين ، والتي نزلت في نهاية السنة التاسعة قبل موسم الحج تضمنت احكاما نهائية بالنسبة الى العرب المشركين الذين سيمهلون مدة اربعة اشهر فان لم ينضموا الى الصف المسلم فسيحاربون وسيكون الله ورسوله براء منهم « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين .. .. ، فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفوررحيم »(١) .

كان لهذا الوعيد والانذار الرهما في حث من بقي على الشرك من العرب على الانضمام للصف الاسلامي ،

واضحت القبائل التي تلكأت في اعلان اسلامها او ارسال وفود من قبلها لبيعة الرسول الكريم معرضة لغزو المسلمين حتى تقر بالاسلام وتعترف برئاسة الرسول كما كان حال بني الحارث بن كعب ، اذ بعث الرسول خالد بن الوليد في شهر ربيع الاول او في جمادي الاولى من السنة العاشرة للهجرة الى نجران وامره ان يدعوهم للاسلام قبل ان يقاتلهم ، ثلاثا ، فان استجابوا قبل منهم اسلامهم والا وجب عليه قتالهم (٢) كما وجه الرسول علي بن ابي طالب في سرية الى اليمن في رمضان فاسلمت همدان ثم تتابع اهل اليمن على الاسلام (٣) .

واذا قمنا باحصاء الوفود التي قدمت على المدينة في السنة العاشرة للهجرة ، لوجدنا ان عددها اكثر بكثير من تلك التي قدمت في السنة التاسعة بمعنى ان معظم هذه الوفود قدمت عندما ادركت أن لا فائدة من المقاومة وان من الافضل القبول بالامر الواقع ومبايعة الرسول على الطاعة والولاء . ولكننا في الوقت ذاته لا نستطيع الانكار ان بعض افراد هذه الوفود قد اسلموا عن ايمان فحسن اسلامهم ، بينما لم يدخل الايمان قلوب الاخرين ، وشتان بين المسلم والمؤمن ، وقد اشار القرآن الى ذلك صراحة : ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم)) (٤) ، ومن ثم ما ان انتشر خبر مرض رسول الله (صلعم) اثر عودته من حجة الوداع (وهو غير مرض موته) حتى وثب الاسود العنسي باليمن ومسيلمة باليمامة ، ثم وثب طليحة في بلاد أسد . وانه مما يلفت الانتباه أن هؤلاء الثلاثة ادعوا النبوة كما ادعتها سجاح بنت الحارس بن سويد وذو التاج لقيط بن مالك الازدي في عمان فيما بعد ، وقد نتساءل عن السبب الذي دفعهم الى ادعاء النبوة ؟ لا شك انهم وجدوا ان في هذا الادعاء ما يكسبهم قوة ويمكنهم من السيطرة وتولي الحكم في المناطق التي ثاروا فيها ، وهو يشير كذلك الى ان هؤلاء الثلاثة وغيرهم لم يؤمنوا بمحمد (صلعم) على انه نبي مرسل ، وانما على اساس ان النبوة قد ساعدته على تحقيق سيادته وسلطانه وسلطان قريش على العرب فهذا مسيلمة ، حسب رواية البلاذري يقول لرسول الله حين اقبل مع الوفد ((ان شئت خلينا لك الامر وبايعناك على انه لنا بعدك)) ، فكان جواب رسول الله : ((لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك)) وما ان انصرف وفد بني بني حنيفة حتى ادعى مسيلمة الكذاب النبوة وشهد له الدجال بن عنفوة بأن رسول الله (صلعم) اشركه في الامر معه فاتبعه بنو حنيفة وغيرهم ممن باليمامة وكتب الى رسول الله : ((من مسيلمة رسول الله الي محمد

رسول الله، سلام الله عليك ، فاني قد اشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » ، وكان ذلك آخر سنة عشر (٧) .

اما الاسود العنسي ذو الخمار عبهله (٨) فليس هناك من رواية عند الطبري وابن هشام تشير الى اسلامه ، اما البلاذري فيذكر ان رسول الله (صلعم) بعث جريرا بن عبد الله البجلي في السنة التي توفي فيها الاسود يدعوه الى الاسلام فلم يجبه ، ويعلق البلاذري ان بعض الرواة ينكر بعثة النبي (صلعم) جريرا الى اليمن (٩) .

واذا ما درسنا الروايات المتعلقة بردة الاسود العنسي التي قضي عليها قبل وفاة الرسول الركيم ، ثم الردة الثانية التي قادها قيس بن عبد يغوث نجد انها عبارة عن رفض لفكرة الانصياع للسلطة المركزية التي اوجدها الرسول من ناحية ورفض للمكانة التي احتلها الابناء عند اسلامهم في المجتمع اليمني من ناحية ثانية ، والابناء هم اولاد اهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع سيف بن ذي يزن ، (١٠) فلما قتل سيف تولى الحاكم الساساني امر ادارة اليمن يساعده في ذلك افراد القوة الساسانية . وحدثت في هذه الفقرة اضطرابات في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالي ضعيفا ، فقوي نفوز القبائل والامراء المحليين ، وثاروا على الحكم الساساني وحصروا نفوزه في صنعاء وما يجاورها .

فلما أسلم باذام (باذان) الفارسي وأسلمت اليمن جمع رسول الله (صلعم) لباذام عمل اليمن كلها وامره على جميع مخاليفها ، فلم يزل عاملا لرسول الله حتى مات ، ففرق الرسول عمل اليمن بين جماعة من أصحابه ، وفي روايتين للزهري ان النبي (صلعم) رجع الى المدينة بعد ما قضى حجة الاسلام ، وقد وجه امارة اليمن وفرقها بين رجال ، وافرد كل رجل بحيزه ، ووجه امارة حضرموت وفرقها بين ثلاثة وافرد كل واحد منهم بحيزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على مابين نجران ورمع وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء شهر بن باذام ، وعلى عك والاشعريين الطاهر بن ابي هاله ، وعلى مأرب ابا موسى الاشعري ، وعلى الجند يعلى بن امية وكان معاذ معلما يتنقل في عمالة كل عامل(١١) .

وهكذا نرى ان الرسول رغبة في احقاق المساواة الكاملة بين العربي المسلم والاعجمي المسلم ، ورغبة منه في أن يبين لاتباعه انه لا فرق بين

عربي واعجمي الا بالتقوى فانه كافأ باذام بان جعله عاملا له ليس على صنعاء فقط وانما على عمل اليمن كلها ، ولما مات عين ابنه شهر بن باذام عاملاً على صنعاء ، فلما خرج الاسود العنسي ذو الخمار عبهلة بن كعب من كهف خبان ايدته مذحج وواعدته نجران واخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وهما عاملا الرسول وانزلوا الاسود منزلهما ، كما وثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك عامل الرسول على مراد فاجلاه ونزل منزله ، (١٢) وورد كتاب من الاسود الى عامل الجند ومن معه : ((ايها المتوردون علينا امسكوا علينا ما اخذتم من ارضنا ، ووفروا ما جمعتم فنحن اولى به وانتم على ما انتم عليه)) . فهو يعتبر هؤلاء دخلاء ويطلب منهم التخلي عن هذه الارض التي هي ارضهم وانهم ، اي اهل اليمن ، اولى بما جمعوه من اموال ، ولكن الاسود لم يعمد الى قتلهم كما قتل باذام (١٣)، وفي رواية البلاذري ان الاسود كان متجبرا فاستذل الابناء واستخدمهم فاضر بهم وتزوج امراة شهر بن باذام (١٤) . ومما يثير الانتباه ان الرسول عندما ارسل يحنس بكتابه طلب من الابناء وليس من عرب اليمن القيام على دينهم والنهوض في الحرب والعمل في الاسود اما غيلة واما مصادمة ، وقد تم قتل العنسي على يد فيروز ، وعن ابن عمر قال : ((اتى الخبر النبي (صلعم) من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي ليبشرنا ، فقال : قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك من اهل بيت مباركين ، قيل من هو ؟ قال : فيروز ، فاز فيروز)) .

بعد مقتل العنسي عادت الامور الى مجاريها في اليمن ، ولكن ما ان وصل الخبر بوفاة الرسول (صلعم) حتى انتقضت الامور واضطربت الارض ثانية ، وفي رواية للسري عن شعيب عن سيف عن عبد الله بن فيروز انه بعد مقتل العنسي امن الامراء وتراجعوا واعتذر الناس وكانوا احديثي عهد بالجاهلية ، ولعل هذه العبارة الاخيرة تعبر اصدق تعبير عن الوضع فهم لا يزالون حديثي عهد بالجاهلية ، ولا بد من وقت حتى يستطيع افراد المجتمع كله ان يتفهموا الاسلام كدين وكنظام للحياة والجماعة (١٥) .

ونلاحظ هذا التحامل على الابناء في ردة اهل اليمن الثانية بقيادة قيس بن عبد يغوث من ناحية واعتماد ابي بكر على الابناء وعلى فيروز للقضاء عليها ، اذ عندما بلغ ابا بكر خبر ردة اليمن الثانية كتب الى وجوه اهل اليمن يامرهم بالتمسك بالذي هم عليه والقيام بأمر الله والناس : ((.... اما بعد فاعينوا الابناء على من ناواهم وحوطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه ،

فاني قد وليته)) (١٦) وعندما سمع قيس بالامر ارسل الى ذي كلاع واصحابه : ((ان الابناء نزاع في بلادكم ونقلاء فيكم ، وان تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد ارى من الراي ان اقتل رؤوسهم واخرجهم من بلادنا)) ولكن ذي الكلاع واصحابه وقفوا موقف الحياد فلم يمالئوا قيسا ولم ينصروا الابناء وقالوا : **لسنا مما هاهنا في** شيء ، انت صاحبهم وهم اصحابك)) وعمد قيس الى مكاتبة اتباع الاسود ، وامرهم بالمسير اليه ليكون امره وامرهم واحدا ، فلما اقتربت جموعهم من صنعاء تظاهر قيس بالجزع وطلب مشورة فيروز وداذويه ليبعد التهمة عن نفسه ولكي يطمئنا اليه ، ونجح قيس في قتل داذويه غيلة ، اما فيروز فقد استطاع ان ينجو بنفسه وان يتوجه مع جشيش نحو جبل خولان ، وهم اخوال فيروز .

واستولى قيس على صنعاء وجبى ما حولها واخذ يتريث حتى اتته خيول الاسود . اما فيروز فانه عندما اوى الى اخواله خولان فمنعوه ، انضم اليه الناس وكتب فيروز بالخبر الى ابي بكر ، وانضم الى قيس عوام قبائل من كتب ابو بكر الى رؤسائهم ، وبقي الرؤساء معتزلين . وعمد قيس الى الابناء ففرقهم ثلاث فرق ، اقر من اقام واقر عياله وفرق عيال الذين هربوا الى فيروز فرقتين ، فوجه احداهما الى عدن ليحملوا في البحر وحمل الاخرى في البر وقال لهم جميعا : ((الحقوا بارضكم) .

فلما سمع فيروز ما فعله قيس ، وان عوام اهل اليمن ساندوه ارسل الى بني عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة رسولا يطلب مساعدتهم في انقاذ الابناء ، كما ارسل الى عنك يستمدهم ويستنصرهم كذلك ، فاستطاعوا ان ينتقذوا عيالات الابناء ثم اجتمعوا على قتال قيس ، وانتصر فيروز واضطر قيس الى الهزب ، وتذبذبت رافضتي العنسي وقيس معهما فيما بين صنعاء ونجران : ليس في الروايات المتعلقة بهذه الردة اشارة الى ارتداد عن الاسلام ، وانما نلاحظ رفضا للانصياع لاوامر السلطة المركزية المتمثلة بابي بكر الذي عين فيروز واليا على صنعاء وجعل للابناء مكانة متميزة في المجتمع اليمني .

ان هذا الرفض في الخضوع للسلطة المركزية نراه جليا واضحا كذلك في الروايات المتعلقة بطليحة ، والقبائل التي انضمت اليه ، ففي رواية ابي مخنف عن عبد السلام بن سويد ان خيل طيء كانت تلقى خيل بني اسد وفزارة قبل قدوم خالد فيدنو بعضهم من بعض ولا يقتتلون ، فتقول اسد وفزاره : « والله لا نبايع ابا الفضيل ابدا » فتقول لهم خيل طيء : ((اشهد ليقاتلكم حتى تكنوه ابا

الفحل الاكبر)) (١٧) . وهذا عيينه بن حصن حين ارتد وانضم الى طليحة يقول : ((ما اعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين اسد وانني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة ، والله لان نتبع نبيا من الحليفين احب الينا من ان نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد وبقي طليحة)) (١٨) .

وعندما اوثق خالد عيينه وبعث به الى ابي بكر ، اخذ غلمان المدينة ينخسونه بالجريد ويقولون : اي عدو الله ، اكفرت بعد ايمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط ، فتجاوز عنه ابو بكر وحقن دمه (١٩) .

وتشير رواية ابن الاثير الى ان قبائل عربية كثيرة تبعت طليحة عصبية (٢٠) ولهذا كان اكثر اتباعه من اسد وغطفان وطيء وانضمت عبس وثعلبة بن سعد ومره ، وارسلوا الى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة . ولو تتبعنا اسباب ارتداد القبائل في المناطق الاخرى لوجدنا الاسباب نفسها ، فقد دانت القبائل بالولاء للرسول شخصيا واعترفت بزعامته وسيادته واعتبرته سيد الجزيرة بلا منازع ولكنها وجدت صعوبة في الانصياع لشخص آخر غير الرسول فتجلى هذا الرفض اما بالانضمام الى مدعي النبوة او برفض دفع الزكاة ، لان القبائل رات في الزكاة عبئا ثقيلا عليها لاتدرك معناه ، فالزكاة كانت ايام الرسول تجمع من كافة الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول بتوزيعها على المستحقين من المسلمين في كافة الديار فلما توفي الرسول نرى قرة بن هبيره من بني عامر يقول لعمرو بن العاص عندما نزل به منصرفه من عمان : « ياهذا ، ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة ، فان انتم اعفيتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع ، وان ابيتم فلا ارى ان تجتمع عليكم» (٢١). ولذا لجأت الدولة بعد القضاء على الردة الى ترتيب آخر يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين في هذه الاطراف ويرسل الفائض بعد ذلك الى بيت المال في العاصمة ، وهذا ولا شك ارضى سكان الاطراف وهدأ من ثورتهم .

موقف ابي بكر .

وقف ابو بكر من مدعي النبوة كما وقف من اولئك الذين امتنعوا عن دفع الزكاة موقفا واحدا صارما اذ ان مفهوم الايمان والدولة ووحدة كلمة العرب في الجزيرة العربية ومحو العصبية والشعور القبلي واحلال الوحدة الدينية والقومية الاسلامية محلها ، هذه الامور كلها كانت عند ابي بكر كلا لا يتجزا ، ومن ثم قرر محاربة اولئك الذين رفضوا ان يدينوا له بما كانوا يدينون به للرسول

(صلعم) وبما ان الذين ثبتوا مع ابي بكر كانوا قلة بالقياس الى من ارتد فان الناس نصحوا الخليفة الا يحارب المتنعين عن دفع الزكاة ((لان العهد حديث والعرب كثير وهم شرذمة قليلة ولا طاقة لهم بالعرب» (٢٢) ، وقد سمعوا رسول الله (صلعم) يقول : ((امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله)) ، رفض ابو بكر الاصغاء اليهم فلجأوا الى عمر عله ينجح في اقناعه ، وخلا به نهاره اجمع ، فقال ابو بكر : ((والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم اجد احدا اقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : ((أمرت ان اقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا اله الا الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، فوالله الذي لا اله الا هو لا اقصر دونهم)) وقد حمد له عمر رايه فيما بعد وقال له ((انا فداؤك لولا انت لهلكنا)) (٢٣) .

حارب ابو بكر المرتدة جميعا بالرسل والكتب ، كما كان رسول الله (صلعم) حاربهم به ، الى ان رجع اسامة بن زيد من الشام ، الا ما كان من اهل ذي حسئ وذي القصة ، اذ ان مجموعة من القبائل التي كانت قد اجتمعت على طليحة اقامت في ذي القصة ، وامدهم طليحة باخيه حبال فكان على اهل ذي القصة من بني اسد ومن انضم اليهم من ليث والديل ومدلج، وكان على مرة بالابرق عوف بن فلان بن سنان ، وعلى ثعلبة دعبس الحارث بن فلان فبعثوا وفودا الى المدينة واعلنوا لابي بكر انهم مقيمون على الصلاة ممتنعون عن دفع الزكاة فرفض ابو بكر الاستجابة الى مطلبهم ولكن ايقن بانهم سوف يهاجمون المدينة لانهم راوا من المسلمين قلة ، وهذا ما حدث ، اذ عمد فريق الى مهاجمة المدينة ليلا ، وبقي فريق بذي حسئ .

واستطاع المسلمون ان يردوا المهاجمين وان يتتبعوهم الى ذي حسي ولكنهم اضطروا بعد ذلك الى التراجع عندما نفرت ابلهم ، فظن القوم بالمسلمين الوهن وبعثوا الى القبائل المقيمة بذي قصة ان يقدموا عليهم ، وادرك ابو بكر حرج موقف المسلمين اذا ما تعرضوا لهجوم القبائل متكاتفة ، فبات يتهيأ ثم خرج ليلا فما طلع الفجر ((الا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما ان بزغت حتى ولوهم الادبار)) وقتل حبال واتبعهم ابو بكر حتى نزل بذي القصة وترك بها النعمان بن مقرن مع عدد من الرجال ورجع الى المدينة ، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعلت قبائل اخرى فعل عبس وذبيان فحلف ابو بكر

((ليقتلن في المشركين كل قتلة وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة))(٢٤) . وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي :

اقمنا لهم عرض الشمال فكبكوا
ككبكبة الغزى اناخوا على الوفر
فما صبروا للحرب عند قيامها
صبيحة يسمو بالرجال ابو بكر
طرقنا بني عبس بادنى نباجها
وذبيان نهنهنا بقاصمة الظهر

كان لانتصار ابي بكر بالرغم من قلة من معه من المسلمين رد فعل على المسلمين والمرتدين سواء فقد ازداد المسلمون ثباتا على دينهم في كل قبيلة وازداد لها المشركون انعكاسا من امورهم في كل قبيلة ، وطرقت المدينة صدقات بعض الاشخاص من الذين ترددوا في بادىء الامر كصفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر وكانا من عمال الرسول على تميم .

وعندما قدم اسامة بن زيد استخلفه ابو بكر على المدينة وخرج الى الربذة ليلقى بني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة فلقيهم بالابرق فقاتلهم وهزمهم ثم عاد الى المدينة ، فلما استجم جند اسامة قطع ابو بكر البعوث وعقد الالوية فعقد احد عشر لواء لاحد عشر قائدا ، وكتب ابو بكر رسالة من نسخة واحدة الى جميع المرتدين وبعث بهذه الكتب مع الرسل امام الجنود ، وقد بدأ الكتاب بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وان الله هدى بالحق من اجاب اليه وان رسول الله (صلعم) ضرب باذنه من ادبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعا او كرها ثم اشار الى وفاة الرسول بعد ان بلغ ما امره الله ان يبلغه للناس وان الله قد بين ذلك لاهل الاسلام فقال : ((انك ميت وانهم ميتون))(٢٥) وقال : ((وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون))(٢٦) وقال للمؤمنين : ((وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين (٢٧) وبعد ذلك قال : ((وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان اقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله عز وجل وجهالة لامره واجابة للشيطان ... واني بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وامرته الا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب واقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ومن ابى امرت ان يقاتله على ذلك ولا يبقى على احد منهم قدر عليه وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة وان يسبي الذراري والنساء ، ولايقبل من احد الا الاسلام ، فمن اتبعه فهو

خير له ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد امرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الآذان ، فان اذن المسلمون فاذنوا كفوا عنهم وان لم يؤذنوا عاجلوهم ، وان اذنوا اسألوهم ما عليهم ، فان ابوا عاجلوهم ، وان اقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغي لهم)) . ان كل اجراء قرر ابو بكر اتخاذه يبين انه كان يريد تجنب القتال وحقن الدماء فترك المجال مفتوحا لمن يريد التوبة ، اما اولئك الذين يرفضون فمصيرهم التحريق والقتل وسبي الذراري والنساء .

بالرغم من ان ابا بكر عقد احد عشر لواء لاحد عشر قائدا، الا أن القائد الذي يعود له الفضل الاكبر في القضاء على اخطر حركتين بعد ردة الاسود العنسي هو خالد بن الوليد ، فقد قضى على حركة طليحة واتباعه (٢٨) ونجح في القضاء على مسيلمة الكذاب ومن اتبعه من بني حنيفة ، وكان مسيلمة قد هزم عكرمة بن ابي جهل وشرحبيل بن حسنه من بعده ، فوجه اليه ابو بكر خالد بن الوليد الذي ادرك أن هذه الفتنة لن يقضي عليها وتخمد جذوتها الا بقتل مسيلمة ففي رواية السري عن سفيب ، عن رجل من بني سحيم كان قد شهد القتال مع خالد قال بأنه «لما اشتد القتال وكان يومئذ سجالا انما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين ، قال خالد : أيها الناس امتازوا اي تفرقوا وانفصلوا لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتى، فامتاز أهل القرى والبوادي ، وامتازت القبائل من اهل البادية واهل الحاضر ، فوقف بنو كل اب على رايتهم فقاتلوا جميعا فاستحر القتل في أهل القرى ، وثبت مسيلمة فعرف خالد انها لا تركد الا بقتل مسيلمة »(٢٩) وقتل مسيلمة ، قتله وحشي قاتل حمزة في غزوة «أحد» ورجل من الانصار ، كما قتل في المعركة التي دارت بين الفريقين في حديقة الموت التي التجأ اليها بنو حنيفة عشرة الاف مقاتل (٣٠) .

نجح أبو بكر خلال عام تقريبا في القضاء على حركة المرتدين فكان نجاحه تصفية وتثبيتا للاسلام ومدا له ، كان نجاحه تصفية لانها خلصت الدولة الاسلامية الناشئة من كل الشكوك التي أثارها موت الرسول والخوف من أن يتصدع البنيان بموت الباني ، كما كان تثبيتا للاسلام ومدا له الى الاطراف التي بدا وكأنها لم تكن قد لقنت الدين كما لقنته المراكز القريبة من مكة والمدينة ، فكان لابد من هذه الحركة قبل أن ينطلق العرب الى الشام والعراق ، ولكن أبا بكر بقي طيلة حياته وفي كل غزواته وجهاده لا يثق بالمرتدين ، ويحدثنا الشعبي أن أبا بكر « كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردة حتى مات»(٣١)، كما كتب الى عماله : « لا تستعينوا

بمرتد في جهاد عدو »(٣٢) ، وكتب الى خالد بن الوليد وعياض بن غنم «ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى ارى رأيي »(٣٣) . وبالرغم من أن وجوه المسلمين وقادتهم حاولوا أن يثنوه عن خطته وأن يغيروا من رأيه ، فقد ظل أبو بكر عند خطته التي انتهجها فلا يشهد الايام مرتد(٣٤) . فلما كانت خلافة عمر لم يشأ أن تظل هذه القوى معطلة ولم يشأ أن يحرم المجتمع الاسلامي ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدين من اندفاع ورغبة في التكفير ، فأذن لهم عمر ان يشاركوا في الحرب ولكن كجنود في بادىء الامر ، ثم اذن لهم أن يلوا بعض المراتب في الجيش ولكنه لا يطمعهم في الرياسة كما يقول الشعبي(٣٥) وانما يحد سلطانهم دون المائة ويكتب الى سعد ان لا يولي رؤساء اهل الردة على مائة (٣٦) فيضطر سعد ليلة الهدير تقيدا بسياسة الدولة أن يبعث قيس بن المكشوح في سبعين رجلا فحسب ، وقد أظهر المرتدون اندفاعا مشرفا رغبة منهم في تعويض الخطيئة السابقة بالحسنات الكثيرة اللاحقة وأقبلوا على الموت اقبالا لا يعرف الهيبة . ويحدثنا الطبري « أن عمر ندب أهل الردة فأقبلوا سراعا من كل اوب فرمى بهم الشام والعراق » ، ومع ذلك فقد ظلت هذه الطبقة عهد عمر حشوة الناس على حد تعبير الشعبي « وكان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب حشوة الناس » ، فلم تستطع فعالهم أن تقدمهم فتضعهم في مقام الذين ثبتوا على الاسلام . فلما كانت خلافة عثمان نجده يسقط عن هذه الطبقة آخر آثار العقوبات التي وضعها أبو بكر وكسر حدتها عمر « فيأذن باستعمال المرتدين استصلاحا لهم » .

وهكذا نلاحظ أن المجتمع الاسلامي نتيجة لهذه الحادثة التي تلت وفاة الرسول كاد أن ينقسم الى طبقتين، طبقة الذين ثبتوا على الاسلام وطبقة الذين ارتدوا ، وانه كان لذلك آثاره الواضحة في استعمال هذه الطبقة المرتدة وفي الاستعانة بها وفي ادماجها في المجتمع ، فاذا ذكرنا ان الارتداد شمل أكثر اطراف الجزيرة وأجزاء من وسطها وانه لم يسلم منه الا هذه المناطق التي شهدت نشأة الدعوة وازدهارها ، اذا ذكرنا ذلك ادركنا عمق الآثار التي خلفتها الردة في التمييز بين هاتين الطبقتين من طبقات المجتمع الاسلامي ، غير أن الاسلام لم يقتصر على الجزيرة وانما جاوزها ، وخرج المسلمون الى هذه الاقطار التي غلبوا عليها وشاركهم عقيدتهم بعض السكان في هذه الاقطار ، ولذلك لم يحتفظ المجتمع في الحياة الاسلامية بهذا التمييز بين طبقة الذين ارتدوا

والذين ثبتوا وانما اتخذ المجتمع بمن انضاف اليه اشكالا جديدة .

بالاضافة الى هذا الانقسام الذي كاد المجتمع الاسلامي أن ينقسم اليه، نلاحظ ان حروب الردة حققت ، مع ما رافقها من خطر على كيان الدعوة الناشئة ، نوعا من الاختلاط بين العرب أنفسهم ، فقد مضت جيوش الخلافة الى اليمن والبحرين والى عمان ونجد وانتهى الامر بها الى الظفر . ولكن هذه الجيوش لم تحقق ظفرا ماديا فحسب وانما حققت ما كان مقدرا لها في طريق الوحدة فاذا الجنود لا يعودون جميعا الى بلادهم أو مجتمعاتهم أو قبائلهم ، وانما يظلون في هذا المجتمع الجديد الذي أنشأوه يمتزجون به ويختلطون معه ويشاركونه الحياة ولا تحول القبلية بينهم وبين هذه المشاركة ، اذ لم تعد القبيلة هي الرباط الاوحد ما بين هؤلاء الناس، وانما أضحت أخوة العقيدة وصلة الدين هي الرباط الاقوى ، هذا ما نفهمه من حديث الطبري : ان العلاء بن الحضرمي قائد الجيوش التي خرجت تحارب المرتدين في البحرين « أقفل الناس بعد انتصاره فرجع الا من أحب المقام » .

يضاف الى ذلك أن حروب الردة أتاحت حركة تزاوج وتواصل عريضة بين جيوش الخلافة وبين مناطق الارتداد ، كما حمل كثير من السبي الى المدينة ، فلما استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة وولي عمر ، قال: « انه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله وفتح الاعاجم واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والاسلام الا امرأة ولدت لسيدها ، وجعل فداء كل انسان سبعة أبعرة ، الا حنيفة وكندة » .

ولا شك ان عملية الفداء التي اقترحها عمر وانفذها لم تكن تخلو من معنى اجتماعي عميق ، فقد مضت أيام الخليفة أبي بكر أو أكثرها في اقرار الاسلام في الجزيرة نفسها وفي الاندفاعات الاولى نحو العراق والشام ، فلما ولي عمر الخلافة أدرك بما وهب من بعد نظر انه لابد من تجنيد كل قوى الجماعة الجديدة ومن استثارة كل طاقاتها ولا سبيل الى ذلك الا في تمكين وحدتها ، ولذلك حاول أن يصفي أحقادها في الجاهلية والاسلام فلجأ الى هذا الفداء الذي كان ادراكا بارعا لما يجب أن تكون عليه نفوس الذين ينطلقون في الفتوح من ود وصفاء ، وكانت كذلك تصفية لكل ما علق النفوس من آثار الهزيمة وعمل السبي .

(١) سورة التوبة ــ الآيات ١ ــ ٧ .
(٢) الطبري ج٣ ص ١٢٦ .
(٣) المصدر السابق ج٣ ص ١٣٢ .
(٤) سورة الحجرات الآية ١٤ .
(٥) الطبري ج٣ ص ١٨٥ ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج٧ ص ٩٥ .
(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٩٧ .
(٧) المصدر السابق ص ٩٧ الطبري ج٣ ص ١٤٦ ، السيرة لابن هشام ج٤ ص ١٨٣ .
(٨) الاسود العنسي هو الاسود بن كعب من عوف العنسي ، تكهن وادعى النبوة وسمى نفسه رحمان اليمن كما سمى مسيلمة نفسه رحمان اليمامة وقال بعضهم هو ذو الخمار لانه كان متخمراً معتما ابدا ، ويقول بعض أهل اليمن انه كان اسود الوجه فسمي الاسود للونه وان اسمه عبهلة (البلاذري) فتوح ص ١١٢ .
(٩) البلاذري ، فتوح ص ١١٢ .
(١٠) المصدر السابق ص ١١٤ .
(١١) الطبري ج٣ ص ٢٢٨ .
(١٢) الطبري ج٣ ص ١٨٥ .
(١٣) المصدر السابق ج٣ ص ١٨٥ .
(١٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١١٤ .
(١٥) الطبري ج٣ ص ٢٩٣ .
(١٦) المصدر السابق ج٣ ص ٣٢٢ .
(١٧) الطبري ج٣ ص ٢٥٥ .
(١٨) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥٧ ، كان بين اسدوغطفان وطيء حلف في الجاهلية ، فلما كان قبل مبعث النبي (صلعم) اجتمعت اسد وغطفان على طيء فازاحوها عن دارها وغوثها وجديلتها فكره ذلك عوف فقطع ما بينه وما بين غطفان وارسل عوف الى الحيين من طيء فاعاد حلفهم وقام بنصرتهم واشتد ذلك على غطفان .
(١٩) المصدر السابق ج٣ ص ٢٦٠ .
(٢٠) ابن الاثير ــ الكامل في التاريخ ج٢ ص ٣٢٣ .
(٢١) الطبري ج٣ ص ٢٥٩ .
(٢٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ج١ ص ٢٣ .
(٢٣) المصدر السابق ج١ ص ٢٣ .
(٢٤) الطبري ج٣ ص ٢٤٦ .
(٢٥) المرجع السابق ج٣ ص ٢٥٠ سورة الزمر : ٣٠ .

(٢٦) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥٠ سورة الانبياء : ٣٤ .
(٢٧) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥٠ سورة آل عمران : ١٤٤ .
(٢٨) هرب طليحة بعد ان خذله الله حتى لحق باعمال دمشق ونـزل على آل جفنة ، ثم اسلم وقدم مكـة معتمرا ، ثم خرج الى الشام وجاهد وشهد اليرموك وشهد بعض حروب الفرس ـ تهذيب ابن عساكر ج٢ ص ٩٣ .
(٢٩) الطبري ج٣ ص ٢٩٣ .
(٣٠) المصدر السابق ج٣ ص ٢٩٤ .
(٣١) المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ .
(٣٢) المصدر السابق ج٣ ص ٣٤١ .
(٣٣) المصدر السابق ج٣ ص ٣٤٧ .
(٣٤) الطبري ج٣ ص ٣٤٧ .
(٣٥) المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ .
(٣٦) المصدر السابق ج٣ ص ٥٥٧ .

